

# «الفن الشافي».. كتاب يثبت أن الجمال منقذ للعالم

## سيجيء يوم قد ندرك فيه أن لا وجود للطب بل للفن فقط



من يشاهد الجوكوندا يغدو موناليزا في وجه من الوجوه

وصفة طبية، كما يصف الأدوية الأخرى، أو يرافق مرضاه إلى المعارض الفنية، والقصور القديمة التي تزخر بلوحات ومنحوتات بديعة.

وكما يغير كتاب حالتنا النفسية ونظرتنا إلى العالم، يمكن للموسيقى أو الفن التشكيلي أو النحت أن تجعل الشيء نفسه، وتساعدنا على تجاوز همومنا وقت الضيق والأمان عند اشتداد المرض، وأن تكون أكثر سعادة في أوقات الصحة والرفاء. فالفن عنوان الجمال، والجمال هو الذي ينفذ العالم.

يقول الفرنسي لوكيزيو، صاحب جائزة نوبل للأدب عام 2008، مؤكداً أثر الفن على الصحة الجسدية والذهنية «سيجيء يوم قد ندرك فيه أن لا وجود للطب، بل للفن فقط».

الداغية. فعندما نتأمل لوحة أو نسجع قطعة موسيقية أو نقرأ رواية فإن بعض مناطق الدماغ تشرع في العمل، لتتفاعل مع مناطق أخرى تنتشط الذاكرة، وترغبنا في الابتكار، وتجعلنا نحس بمتعة.

أما ممارسة الفن فيمكن أن تقضي على الضغط النفسي والقلق وحتى الألم، بفضل الهرمونات التي أسلفنا ذكرها. وأما الموسيقى فيمكن أن تساعد على تأخير ظهور مرض الزهايمر. ومن ثم ينصح بعض الأطباء، وفي مقدمتهم لوماركي، مرضاهم بارتياح المعارض والمتاحف، بل ثمة من يدون ذلك في

الجمالية، وأبعاده، واعتباره جميلاً دون أن نحبه بالضرورة، ما يعني أن ملكتي الدماغ قد تشتغلان بشكل مستقل عن بعضهما بعضاً، وتُقيبان على قنوات تواصل تقع في منطقة يعرفها ريزولتسي بالجزيرة «إنسولا»، كمقر للتطابق الجمالي مع الغير، الذي يوحد بين الفكر والعاطفة. أما دراسة لوماركي فتؤكد التواصل بين

الذهن والانفعال، وتبين أن الفن يفيد الدماغ، إن يحور قدراته ويخلق ذخراً قريباً يساعد على تأخير آثار الشيخوخة، مثلما يساعد على التذكر حتى حينما يصيب المرض القدرات

شرح نظرياً ما يعتري الفرد أمام عمل فني، فلكي يؤكد أنه يشاطره الرأي حين يقول إن كل فرد يتقمص العمل المرئية، من خلال بعض التجارب التي أجراها لقياس ردة فعل شخص يرتاد متحفاً للفنون، كنبض القلب والتعرق، أمام لوحة يشاهدها، فإن استحسنها، انخفض توتره النفسي، لأن إنتاجه للكورتيزول (الهرمون الذي يستعمله للقيام في الصباح وبدء نشاطه) في تلك الحالة ينخفض، مثلما ينخفض خفقان قلبه ويرتخي جسده، بينما يفرز الدماغ، حيث جانب المتعة والمكافأة، الدوبامين (هرمون فرحة الحياة).

كما أن الإندورفين (الذي يمنح الشعور بالاطمئنان والراحة) والأوسوتوسين (هرمون التعلق والمحبة) اللذين ثبت إفرازهما خلال الاستماع إلى معزوفة موسيقية، يمكن أن يكونا هما أيضاً ضمن الترسانة الكيمائية التي تتفاعل بداخلنا حين نكون أمام لوحة فنية. وإن يذكر بيير لوماركي بالفيلسوف الألماني روبرت فيشر الذي سبق أن

عندما نتحدث عن المتعة التي نجدها في قراءة كتاب أو سماع قصيد أو مشاهدة لوحة فعادة ما نعتبر ذلك انطباعاً قد نفسره بإحساس مرهف أو وعي حاد أو ثقافة واسعة. ولكننا لا نملك تفسيره تفسيراً علمياً لا اعتقادنا أن الفن يقاس بالذوق لا بالعلم. وما أن بعض أطباء الأعصاب يؤكدون بالتجربة أن الاستماع إلى سيمفونية لموزارت مثلاً أو تأمل جدارية لمايكل أنجلو أو مشاهدة مسرحية لشكسبير يمكن أن تغير دماغ المتلقي. كما أنهم يبيّنون العلاقة بين الفن والدماغ والجمال والصحة.

ما أوضحه عالم طب الأعصاب الفرنسي بيير لوماركي في كتاب بعنوان «الفن الشافي».

إن يبين أن للدماغ وظيفتين، فهو من جهة يسمح لنا بأن نبقي على قيد الحياة، ومن جهة ثانية يمنحنا الرغبة فيها، ما يعني أنهما وظيفتان ضرورتان، يكمل بعضهما بعضاً، ويشبهان الفارس وجواده، حيث يمثل الأول الدماغ الفكري، بينما يرمز الثاني إلى المتعة والمكافأة.

فيذا ما ألح الفارس على توجيه جواده وجهة ما ولم يُطعه الجواد، فذلك في رأي لوماركي أمر جيد، فبذلك تتشأ الأخطاء، والرغبات التي تلهينا وتثني بنا عن العقلانية، ولكنها تحذرننا كيشير، نخطئ ونصيب. كذلك العمل الفني الذي يتوجه إلى ملكتي دماغنا، فينحت إحداها ويصقلها ويساعدها على اكتشاف ما لا تعلم، ويداعب الثانية فيمنحها المتعة والمكافأة.

هذه الظاهرة تمت دراستها طويلاً في مجال الموسيقى، وأثبت لوماركي أنها حاضرة أيضاً في حقل الفنون المرئية، من خلال بعض التجارب التي أجراها لقياس ردة فعل شخص يرتاد متحفاً للفنون، كنبض القلب والتعرق، أمام لوحة يشاهدها، فإن استحسنها، انخفض توتره النفسي، لأن إنتاجه للكورتيزول (الهرمون الذي يستعمله للقيام في الصباح وبدء نشاطه) في تلك الحالة ينخفض، مثلما ينخفض خفقان قلبه ويرتخي جسده، بينما يفرز الدماغ، حيث جانب المتعة والمكافأة، الدوبامين (هرمون فرحة الحياة).

كما أن الإندورفين (الذي يمنح الشعور بالاطمئنان والراحة) والأوسوتوسين (هرمون التعلق والمحبة) اللذين ثبت إفرازهما خلال الاستماع إلى معزوفة موسيقية، يمكن أن يكونا هما أيضاً ضمن الترسانة الكيمائية التي تتفاعل بداخلنا حين نكون أمام لوحة فنية. وإن يذكر بيير لوماركي بالفيلسوف الألماني روبرت فيشر الذي سبق أن

كانت فكرة مجردة كسائر الأفكار الفلسفية التي لم يثبتها بالفعل والمراس أحد، ولا أحد يعي الجلبة التي تتولد بداخلنا وتفجر المواد التي تتصادم في أعماقنا حين يلتقي نظرتنا بلوحة أو منحوتة. فلماذا نعمل فني، أيًا ما يكن جنسه، يشبه إلى حد بعيد لقاء بصديق أو قريب أو حبيب، فهو غالباً ما يولد فينا شعوراً ما، يتراوح بين القبول والنفور، المحبة والكراهة، ولكنه لا يتركنا أبداً في وضع لا يباله.

أبو بكر العيادي  
كاتب تونسي

كان الفلاسفة القدامى أول من نبهوا إلى أثر الجمال والفن على مجريات حياتنا وأمزجتنا وحالتنا الصحية والذهنية، حتى وإن اختلفوا في تعريف الجمال وكيفيته إدراكه. وما أن علوم الأعصاب تؤكد اليوم ما ذهبوا إليه واستشعروه بالفترة والملاحظة والتأمل، وتكشف كيف يتواصل دماغ الإنسان مع الإبداع الفني في شتى أشكاله وأجناسه، وكيف يوسع رؤيتنا إلى العالم ويغير ما بنا داخل مسعني شفاء وانبعاث.

### الفارس وجواده

كانت فكرة مجردة كسائر الأفكار الفلسفية التي لم يثبتها بالفعل والمراس أحد، ولا أحد يعي الجلبة التي تتولد بداخلنا وتفجر المواد التي تتصادم في أعماقنا حين يلتقي نظرتنا بلوحة أو منحوتة. فلماذا نعمل فني، أيًا ما يكن جنسه، يشبه إلى حد بعيد لقاء بصديق أو قريب أو حبيب، فهو غالباً ما يولد فينا شعوراً ما، يتراوح بين القبول والنفور، المحبة والكراهة، ولكنه لا يتركنا أبداً في وضع لا يباله.

### الفن يفيد الدماغ، إذ يحور قدراته ويخلق ذخراً فكرياً يساعد على تأخير آثار الشيخوخة وعلى التذكر وغيره

جاء العلم ليؤكد أن مشاهدة لوحة فنية مثلاً تنتشط ملكتين من ملكات الدماغ، هما المتعة والمعرفة، ويثبت أن الفن يريح الإنسان ويحسن مزاجه، ذلك

## الجزائر تسحب ملف إدراج موسيقى الراي في قائمة التراث العالمي

وتلقت يسري إلى أنه في العام 1994، بعد صعود الجبهة الإسلامية المتشددة في الجزائر، تم قتل الشاب حسني أحد أشهر فناني الراي وقتها، وتلقت العديد من الفنانين تهديدات بالقتل، كالشابة الزهوانية والشابة فضيلة، ما دفع العديد من الفنانين نحو اللجوء إلى فرنسا، وممارسة الراي هناك ونشره في المجتمع الغربي، لبيد هذا الفن مرحلة جديدة من الانتشار.

### الراي ليس مجرد موسيقى إنه فن عريق لطالما واجه الحصار وبات اليوم فناً عالمياً يختزل نضال أمة

وتذكر الكاتبة كيف لجأ نجوم الموجة الشبابية لموسيقى الراي أمثال: الشاب خالد، الشاب مامي والشاب فويل، إلى فرنسا، بعد خوفهم من الاعتقال الذي نفذه الإسلاميون بالشباب حسني وغيره من الفنانين والنيارات اليسارية، ومثل ذهاب الشاب خالد إلى فرنسا خطوة أولى في صعود الراي إلى العالمية.

قصة الراي ونضاله الطويل وتحولاته منذ عصور سابقة رغم الحصار من السلطات المتعاقبة، ووصوله إلى ما هو عليه من عالمية اليوم، تؤهله ليكون تراثاً حياً لا مابيا لجيل المستقبل، حيث سيساهم إدراجه ضمن لائحة اليونسكو في الحفاظ عليه والاعتناء به.

الراي تقليد شعري بدوي التراث، حسب ما استنتجه الباحث من مقدمة ابن خلدون الذي كتب عن الرّجل الأندلسي المنتشر في بلاد المغرب أثناء فترة حكم دولة الموحدين، والراي في اللغة العربية يعني الراي، الحكمة، وجهة النظر، النصيحة.

وتذكر الصحافية منى يسري أنه منذ مطلع عام 1920، مثل الراي بالنسبة إلى الجزائريين ثقافة المحاربين غير التقليديين، حيث أصبح ذخيرتهم منذ ظهور الشيخ الخالدي، والشيخ حمادة، تبعتهما الشبيخة الريميني كاول امرأة تغني الراي، وأصبح الراي حاضراً في كل المناسبات الدينية والاجتماعية وحفلات الزفاف ومهرجانات القديسين، حيث بات فعل مقاومة للاحتلال.

ويؤكد سعيد الخطيبي أن المنعطف الأول لأغنية الراي كان في النصف الأول من سبعينات القرن الماضي مع مسعود لمبو، ويونس بن فيسة وبلقاسم بولججة... وغيرهم، عندما نشأ مصطلح «البوب راي» الذي كان في الأصل كلمة ارتجالية، سرعان ما تم التقاطها وثنق هذا النوع من الموسيقى طريقة إلى العالمية بكثير من الثبات رغم الحصار الرسمي الذي ضرب حوله.

وعوداً على النصوص المؤسسة فإن هذا النوع الموسيقي في الأصل نشأ في أحضان الأغنية البدوية من جهة والأغنية الوهرانية من جهة أخرى، التي تستند كل منهما على نصوص تراثية لشعراء معروفين في الناحية الغربية من البلاد، قبل أن يبرز جيل جديد من كتاب الأغاني الذين أعطوا لأغنية الراي على غرار أحمد حمادي الذي خصص له الكاتب فصلاً من الكتاب.

الأولى التي شكّلت مجد الأغنية الوهرانية والبدوية والراي في وقت لاحق مثل نصوص سيدي لخضر بن خلوف، ومحمد بن مسايب ومصطفى بن إبراهيم المعروف بشاعر بني عامر وغيرهم.

ويرجع الباحث والصحافي الجزائري محمد بلحي تاريخ الراي إلى دولة الموحدين في المغرب العربي؛ حيث بدأ الراي كنتاج ثقافي عن امتزاج الثقافة العربية بالاندلسية بالأمازيغية، وصورته الأولى كانت أبياتاً من الشعر المنشود في الشوارع والحواري للعامّة،

المؤسسة الأولى ومآلاتها المتعددة، وكيف تحول «الراي» في النهاية إلى «رايات» متعددة.

يقول الخطيبي في كتابه: لم يكن الأمر سهلاً، أن نبحث في جذور هذه الموسيقى المثيرة للجدل، التي كانت من الطابوهات ولكنها أصبحت الوجه الأخر للجزائر في العالم. وبحنا عن الجذور لم يكن للكاتب إلا مساعلة الموسيقى الوهرانية من خلال لقائه بالفنان بلاوي الهواري، والموسيقى البدوية القديمة من خلال تراث الشيخ حمادة وغيره، ومن خلال النصوص

وستبث النقاشات عبر الإنترنت بلغتها الأصلية، إضافة إلى الترجمة الفورية باللغتين الإنجليزية والفرنسية على موقع اليونسكو.

لكن تبقى موسيقى الراي المثيرة للجدل من أهم الملفات التي يجب إدراجها ضمن قائمة التراث غير المادي للبشرية.

الراي ليس مجرد موسيقى وهو ما نتعرف عليه في كتاب كان أعده الروائي الجزائري سعيد خطيبي بعنوان «عراس النار»، والذي يسرد فيه حكاية موسيقى الراي، متسائلاً سياتياتها

الجزائر - أشارت وزارة الثقافة والفنون الاثنين في بيان لها أنه تم سحب ملف تصنيف موسيقى الراي الذي اقترح على لجنة تنظيم الدورة 15 للجنة الحكومية المشتركة لحماية التراث الثقافي اللامادي والمرتبب تنظيمها اقتراباً ما بين 14 و19 ديسمبر الجاري بطلب من الوزارة الوصية حتى يتسنى لها تدعيم الملف بعناصر جديدة تتماشى والإجراءات التقنيّة التي تشترطها الهيئات الاستشارية للمنظمة العالمية للترية والثقافة والعلوم «اليونسكو» تمهيداً لعرضه في الدورة القادمة.

وكانت الجزائر وتونس وموريتانيا والمغرب قد قدمت ملفات لتصنيف «علوم وتقنيات عملية مرتبطة بإنتاج الكسكس» من بين 40 ملف ترشح عرض على اللجنة المختصة والتي ستفصل في تسجيلها في القائمة التمثيلية للتراث الثقافي العالمي سنة 2020.

وتحصي الجزائر 6 عناصر مدرجة في القائمة التمثيلية لليونسكو وهي أهليل قورارة ولباس العرس التلمساني والاحتفال بالمولد النبوي في تيميمون وامزاد وركب أولاد سيدي الشيخ واحتفال السببية والسبوع.

ويذكر أنه سبق لليونسكو سنة 2018 إدراج نظام كيالي الماء «الفوقارة» كتراث لا مادي يستدعي الحماية. وعلى مدى ستة أيام، ستدرس الدورة 15 للجنة الحكومية المشتركة لحماية التراث الثقافي غير المادي، التي ستعقد افتراضياً بسبب جائحة كورونا، 42 ملفاً مرشحاً ليدرج على القائمة التمثيلية، علاوة على أربعة ملفات أخرى تتعلق بالتراث غير المادي الذي يتطلب حماية عاجلة.



الشباب خالد حمل الراي إلى العالمية